مدخل إلى الثقافة والنقد الثقافي

« ضمن محاضرات منصة رواق »

د. تامر القزاز

مقدمة

الثقافة قانون حاكم غير مكتوب:

اهتمت التعريفات التقليدية للثقافة بتمثيلها كالشفرة السريَّة للشعوب التي يمكنها أن تحدِّد وتفسِّر بل وتتوقع عادات الشعوب وسلوكياتهم وبعض تصرفات قادتهم، إلا أن الثقافة في الحقيقة تتجاوز هذا المفهوم، فالثقافة هي القانون الفعلي الذي يحكم الشعوب، وينتج عنها تصرفاتهم وعاداتهم وتطوُّرهم الحضاري، فهي قانون غير المكتوب يعلو فوق القوانين الوضعية المكتوبة، ويحكم حينما تنهار هذه القوانين الوضعية أو يقل تأثيرها فتتصرف الشعوب حينئذ تبعًا لثقافتهم لا القوانين التي وُضِعَت لهم.

ولذلك تحدث مفارقات عجيبة عندما إذ انهارت القوانين الوضعية لشعب من الشعوب في فترة من الفترات، إذ تظهر ثقافة هذا الشعب بشكل واضح، وتحكم القوانين الثقافية وحدها تصرفات الناس. ويمكن حينئذ أن تجد بعض الشعوب المتقدمة تشيع بينهم السرقة والظلم والهمجية إذا ما سقطت القوانين الوضعية المكتوبة أو خَفَّ تأثيرها ولو لفترة بسيطة، وكذلك قد تجد بعض الشعوب الفقيرة تبقى بينهم الأمانة والأخلاق حتى وإن سقطت القوانين الوضعية بينهم؛ وهذا الفرق إنما ينتج عن ثقافة هذه الشعوب، حتى وإن اختلفت نظم حكمها أو مستوى تقدُّمها المادي.

بل تتجلى قوة القوانين الثقافية وتغلُّبها على القوانين الوضعية إذا ما حاولت الدولة أو أي فئة ذات سلطة فَرْض قوانين مخالفة لثقافة الشعب، فإن هذه القوانين تبقى مهملة غير مفعَّلة لا يعمل بها الناس طالما تعارضت مع قوانينهم ثقافتهم.

العلاقة بين الثقافة والاطلاع العلمي:

يشيع استخدام كلمة مثقَّف للدلالة على الشخص المتعلِّم واسع الاطلاع غزير المعرفة القادر على إبداء الرأي في العديد من القضايا والشئون، بينما يُنْظَر لشخص آخر في نفس البلد أو البيئة لكنه غير المتعلِّم أو غير الحاصل على درجة علمية معينة على أنه ليس له ثقافة. وهذا غير صحيح، فليس هناك شخص بلا ثقافة، فالواقع أن الثقافة عامل مشترك بين كلا الشخصين، البسيط والمتعلم واسع الاطلاع، فكلاهما اكتسبها من نفس البيئة والبلد والتاريخ والعقيدة وإن اختلفت الدرجة العلمية أو درجة المعرفة بينهما.

فالمساحة المشتركة بين ثقافة الشخصين كبيرة، وحتى الاختلافات التي توجد في ثقافة الشخص واسع الاطلاع والمعرفة نتيجة لقدرته على تعديل ثقافته وتطويرها هي اختلافات لا تمس الأصول والثوابت.

الثقافة كأداة صراع:

تحاول بعض الفئات ذات النفوذ، مثل بعض رجال الأعمال أو بعض الطبقات السياسية، ممارسة ما يُعْرَف **بالثقافة الموجهة**، وذلك من خلال محاولة تغيير ثقافة بعض الشعوب بما يضمن تحقيق مصالح خاصة بهذه الفئة، فتحاول مثلا فرض نمط استهلاكي معين أو ترسيخ مفاهيم معينة تحقق من خلالها بعض المصالح. وقد تكون هذه الفئات أيضا من خارج المجتمع، مثل الشركات متعددة الجنسيات التي ترغب في تحقيق مصالح مالية وتسويق بعض المنتجات الخاصة بها عالميًّا فتعمل على تغيير النمط الاستهلاكي لبعض الشعوب لتجعلها أكثر تقبُّلاً لمنتجاتها.

المثاقفة:

المثُاقَفَة هي مصطلح للتعبير على العلاقة بين ثقافتين. وهذه العلاقة أو المثاقفة قد تكون:

1- **مثاقفة طوعية**: ومن أمثلتها ما يحدث أثناء التجارة من تواصل واختلاط بين الثقافات، ويمكن أن تختلط ثقافتان ليحدث تتطور لهاتين الثقافتين أو لتنشأ ثقافة ثالثة.

2- **مثاقفة قصرية**: ومن أمثلتها سعي الدول المحتلة لمصر والجزائر وليبيا وغيرها من الدول في القرن التاسع عشر لفرض ثقافة جديدة ومختلفة عن هذه الشعوب.

تعريفات الثقافة

التعريفات التقليدية للثقافة:

التعريفات التقليدية للثقافة هي تلك التعريفات والقوالب الجامدة الموجودة في المراجع والرسائل والبحوث العلمية، وهي في مجملها فضفاضة وواسعة وربما محيِّرَة، وهي أيضا تحتاج إلى إعادة نظر وتدقيق لتكون أكثر تأقلمًا مع الأوضاع الحالية. ومن هذه التعريفات ما يلي:

1- **تعريف كلايد كلاكهون:**

يعرِّف كلايد كلاكهون (Clyde Kluckhohn) الثقافة بأنها: "جميع وسائل الحياة التي تكوَّنت على مدى التاريخ، بما في ذلك الوسائل الضمنية والصريحة، والعقلية وغير العقلية"، ويضيف: "الثقافة الخاصة بأي مجتمع من المجتمعات هي نَسَقٌ تاريخيٌّ المَنْشَأ يضم مخططات الحياة الصريحة والضمنية، ويشترك فيه جميع أفراد المجتمع أو أفراد قطاع خاص معين منه".

ويلاحظ من هذا التعريف أنه -كما مَرَّ- من التعريفات الفضفاضة التي تتكرَّر فيها لفظة "كل" و"جميع"، وتتكرَّر فيها الكلمة وعكسها، وكأنه يحاول أن يشمل كل شيء، وهو أمر يجعل التعريف غير دقيق بلا شك، إلا أن عُذْرَه في ذلك أن الثقافة هي أمر متداخل مع كل شيء بالفعل.

ومن المهم في هذا التعريف فهم المقصود بأن الثقافة "نسق تاريخي المنشأ"، وهو أن الثقافة مادة تراكميَّة مرتبطة بالتراكم المعرفي للشعوب، فكل وسائل وأساليب الحياة التي تُنْسَب لشعب من الشعوب (كأسلوب الحياة الأوروبي أو أسلوب الحياة الأمريكي) يمكن إدراجها تحت مسمَّى الثقافة وبحثها من منطلق تاريخي، لأنها ليست وليدة اللحظة.

والمقصود بالمخططات الضِّمْنِية للحياة المذكور في هذا التعريف، هو ما يرغب ويطمح الشخص للقيام به، حتى وإن لم يقم به نتيجة لأي عوائق أو ظروف اقتصادية مثلا، وهذا النمط هو أولى بالدراسة لأنه يعبر عن حقيقة رغبات الشخص وتفكيره.

ونبَّه التعريف على إمكانية أن يقوم "أفراد قطاع خاص معين" من المجتمع، أو فئة صغيرة منه بتكوين ثقافتها الخاصة بها، ليصبح في المجتمع الواحد ثقافتان أو ثلاثة أو أكثر، تتعايش مع بعضها البعض.

2- **تعريف جورج نيللر:**

يعرِّف جورج نيللر (George F. Kneller) الثقافة بأنها "الطريقة التي نأكل بها، وننام بها، والتي نغتسل بها، ونرتدي ملابسنا بها، ونذهب بها إلى العمل، وهي اللغة التي نتحدث بها، والقيم والمعتقدات التي نتمسك بها، والسلع والخدمات التي نشتريها، والطريقة التي نشتريها بها، والطريقة التي نقابل بها أصدقاءنا والغرباء عنا".

ويظهر أيضا من هذا التعريف أنه يحاول أن يشمل جميع الأعمال التي نقوم بها بطريقة تلقائية خلال اليوم منذ أن نستيقظ في الصباح وحتى أثناء النوم، فهو يعتبر جميع هذه السلوكيات وتفصيلات الحياة وأنماطها إنما هي أمور ناتجة عن نمط ثقافي معيَّن.

3- **تعريف د. الفاروق زكي يونس:**

يقول الدكتور الفاروق زكي يونس: "فالأسلوب الذي يسير عليه الناس في حياتهم إنما يعتمد على طبيعة الثقافة السائدة في المجتمع، مع بعض الآثار التي تتركها العوامل الجغرافية والبيولوجية، وهنا تبرز أهمية الثقافة كعنصر لا غنى عنه في الدراسة التي تهدف إلى التعرُّف على الحياة الاجتماعية للناس، وتفسيرها وفهمها، وهي موضوع البحث العلمي الذي يعنى بالتحليل والتنظير".

ومن الملاحظ هنا التنبيه على دور العوامل الجغرافية والبيولوجية في إنتاج الثقافة السائدة للمجتمع.

4- **تعريف إدوارد تايلور:**

وهو عمدة التعريفات وأشهرها، وفيه يعرِّف إدوارد تايلور (Edward Burnett Tylor) الثقافة بأنها "ذلك الكلُّ المركَّب الذي يشتمل على المعرفة والمعتقدات، والفنون والأخلاق، والقانون والعُرْف، وغير ذلك من الإمكانيات والعادات التي يكتسبها الإنسان باعتباره عُضْوًا في مجتمع".

ويظهر اختلاف هذا التعريف عن التعريفات السابقة في كَوْنه لم يتحدث عن الأنماط المعيشية المختلفة من مأكل وملبس ومسكن، وإنما ركَّز عن الجانب الروحي من المعرفة والمعتقدات وغيرها من المنتجات العقلية.

كما نبَّه التعريف على أن العضوية في المجتمع هي التي تمنح الثقافة أو تساهم في تقبُّلها.

5- **تعريف شيلر وماثيو أرلوند:**

حاول هربرت شيللر وماثيو أرلوند (Herbert Schiller and Matthew Arnold) تحديد مَن الذي ينشئ الثقافة، فقالوا بأن "الدولة هي الراعية للمجتمع، وأن عليها غرس القيم الثقافية في المجتمع وتهذيبه وصيانته".

وهذا التعريف هو صورة صريحة من الثقافة الموجهة، وكأنه ينظر إلى المجتمع على أنه طفل يحتاج باستمرار إلى التأهيل والرعاية والتهذيب كي يستطيع أن ينمو وينضج، والدولة هي التي ستقوم بهذه الرعاية والتأهيل، ولذلك لاقى هذا التعريف الكثير من الانتقادات.

كما أن هذا التعريف به مبالغة في المثالية، إذ يفترض أن جميع الدول هي دول صالحة وراشدة ستعمل على تحقيق مصلحة شعبها وغرس القيم الثقافية الحسنة فيه.

<u>الاختلافات الثقافية:</u>

أكَّد فانز بواس (Franz Uri Boas) على خطأ النظرية القائلة بأن الاختلافات بين الشعوب مرجعها إلى العرق والجنس، فلا يوجد اختلاف بين الشعوب البدائية والمتحضرة إلا في الجانب الثقافي، الذي هو جانب مكتَسَب وليس غريزي، ولا يمكن أن نرجِع تقدُّم وتحضُّر شعب من الشعوب إلى جنس هذا الشعب أو عرقه، كما لا يمكن أن نرجِع بدائية شعب من الشعوب لجنسه أو عرقه.

ويؤكِّد ذلك كلام دوركايم (Émile Durkheim) أنه لا وجود لشعب بدون ثقافات، أو لشعوب طبيعية، فلكل شعب ثقافته الخاصة به، وهذه الثقافة لا يشترط أن تسير نحو ما هو أكثر رقيًّا من وجهة نظر ثقافة أخرى تعتقد أنها أكثر رقيًّا وتطوُّرًا، وربما ترى أنها منوطة بتطوير ورفع كفاءة ثقافات الشعوب الأخرى.

اتجاهات فهم الثقافة

الاتجاه المادي:

يُرجِع أصحاب هذا الاتجاه تفسير وفهم الظواهر الثقافية إلى أسباب ماديَّة، كما أنهم يدرسون الثقافة من خلال تجليَّاتها المادية.

1- رؤية مالينوفيسكى:

يعتبر الروسي برونسيلاف مالينوفسكي (Bronisław Malinowski) من أفضل من عبرَّوا عن الاتجاه المادي في فهم الثقافة، فقد قال بأن الإنسان هو كائن حيواني يعيش تحت ضغط عدد من الاحتياجات الفسيولوجية من غذاء ومسكن وملبس ... إلخ، والثقافة هي أحد الاستجابات الوظيفية لتلك الحاجات، وهي تحقق تلك الاستجابة من خلال المؤسسات الاقتصادية والسياسية والتربوية ... إلخ.

وهذا التعبير يبدو صادمًا لأنه يركِّز بقسوة على الجوانب المادية في حياة الإنسان، ولكن الاتجاه المادي يتحرَّك في الحقيقة في هذا الاتجاه.

وتظهر بناءً على هذا التعريف العديد من الإشكالات خاصَّةً مع التعمُّق فيه، ومن أهم هذه الإشكالات كيفية تحديد الأولويات المادية، أو الاحتياج المادي الأبرز التي تنبني عليه الثقافة، هل هو المسكن أم الملبس أم الغذاء أم غير ذلك؟ فلا شك أن هذا السؤال تصعب الإجابة عليه بسبب اختلاف الاحتياجات من ظرف لآخر، ومن وقت لآخر.

ولكي نفهم الأولويات المادية وأهمية العوامل المادية المختلفة في تشكيل الثقافة نحتاج إلى تحديد:

1- العلاقة بين الموارد والاحتياجات: فعادةً ما تكون الموارد المادية للإنسان أقل من احتياجاته ورغباته، وهو باستمرار يحاول ويسعى ليزيد من موارده بالصورة التي تَكْفُل له تلبية أكبر حد من متطلباته واحتياجاته.

   وحتى عندما يتمكن الإنسان من زيادة موارده وتلبية احتياجاته الحالية، فإنه سرعان ما يطمح إلى رغبات ومتطلبات جديدة فيرتفع مستوى احتياجاته ليصبح مرة أخرى أعلى من مستوى موارده، وبالتالي تبقى هذه الفجوة بين الموارد والاحتياجات ثابتة.

2- تفضيلات الفرد والمجتمع: فهل ترتبط هذه التفضيلات والأولويات المادية برؤية الفرد أم برؤية المجتمع؟ يبدو في الغالب أن الفرد هو الذي يلعب الدور الأكبر في تحديد احتياجاته المادية، ولكن الواقع أن المجتمع أيضا يلعب دورًا لا يمكن إهماله.

ولا تخرج العلاقة بين الموارد والاحتياجات عن ثلاث احتمالات:

1- أن يتمكن الشخص من التحكم في موارده واحتياجاته (وضع مثالي، يكاد يكون مستحيل).
2- أن يتحكم في أحدهما دون الآخر (خلل جزئي).
3- أن لا يتمكن من التحكم في أي منهما (خلل تام).

2- رؤية مارفن هاريس:

تتمثل رؤية مارفن هاريس (Marvin Harris) في أن "البشر لا يستطيعون تناول طعامهم، أو التنفس، أو الإخراج، أو الحركة، أو الإنتاج، دون أن يتضمن ذلك شيئا من ثقافة مجتمعهم، إن ثقافتنا تنمو وتتسع وتتطور، تلك هي طبيعتها".

وهو امتداد لرؤية مالينوفسكي، إلا أنه يزيد في التفصيل في الظواهر المادية، حتى يصل إلى الإخراج ويضعه ضمن الظواهر الثقافية، وهو أمر غريب وغير مفهوم نوعًا ما. لا شك أن الدين الإسلامي يحتوي على ضوابط وآداب لعملية الإخراج، لكن الرغبة في دراسة والبحث في مثل هذه الأمور الخاصة لتحديد ثقافة المجتمع هو الأمر الغريب في رؤية هاريس، وهو إغراق شديد في المادية.

ثم إن الحياة اليومية للإنسان مليئة بالكثير من الأنشطة والأعمال الكبيرة والصغيرة التي يستحيل دراستها بجميع تفصيلاتها، كما أن هذه الأعمال هي في الحقيقة تجليّات للثقافة وليست الثقافة ذاتها.

أثر الاتجاه المادي في دراسة الثقافة:

تؤدي دراسة ثقافات الشعوب من وجهة النظر المادية تلك إلى مجرد تصنيف الشعوب إلى متحضرة أو غير متحضرة بناءً على سلوكياتهم من وجهة نظر الشخص القائم بالتصنيف، ثم محاولة نشر وسائل وأساليب الحياة الخاصة بالثقافة العالمية الأكثر انتشارًا، وتعميمها على جميع الشعوب باعتبارها الأكثر تقدُّمًا وتحضُّرًا من وجهة نظر المصنِّف.

كما أن الاتجاه المادي ينظر إلى المجتمع بكل مركِّبَاته (الأسرة، والمؤسسات السياسية، والاقتصادية، والدينية، ... إلخ) على أنه كُلٌّ لا يمكن أن ينعزل بعضه عن بعض، وإذا ما حدث تغيير في أحد هذه المركِّبَات فلابد أنه سيؤثر على البقية، فلا يمكن النظر إلى المجتمع على أنه وحدات منفصلة.

فالاتجاه المادي يحاول أن يحوِّل الثقافة إلى منتج مادي قابل للقياس والتصنيف، وليس مجرد أمور معنوية وروحية واعتقادات يصعب قياسها وتصنيفها. ومن أمثلة التفسيرات التي قام بها هذا الاتجاه لبعض الأمور والظواهر:

- تفسير عبادة الهنود للأبقار بأنها تعود إلى فترات سحيقة كان الهنود يحتاجون فيها الأبقار بشدة من أجل الزراعة وبعض الأعمال الأخرى التي كانت لها أهمية أعلى من مجرد أكل لحومها، وبالتالي نشأ الهندي على فكرة تقديس الأبقار لأن أجداده كانوا يرفضون ذبحها.
- تفسير ظهور الحركات النسوية بعد الحرب العالمية الثانية بأنها نتيجة لانتشار قضايا مآسي الأسر التي عانت أثناء الحرب وفقدت عوائلها، إذ صارت المرأة هي التي ترعى وتقوم على هذه الأسر، وحدث اختلال في نسبة الرجال إلى النساء في العديد من الدول الأوروبية.

وعلى الرغم من نجاح الاتجاه المادي في مثل هذه التفسيرات، إلا أنه لاقى الكثير من الانتقادات والقصور في هذه التفسيرات، فمثلا لماذا الهند وحدها هي التي انتهت إلى عبادة الأبقار رغم أن جميع الشعوب لديها مثل هذه الاحتياجات، ولا شك أن مرجع مثل هذه الأمور هو لإهمال مثل هذه التفسيرات لجانب العقيدة.

<u>الاتجاه المعرفي:</u>

يركِّز هذه الاتجاه على المعتَقَد والمنجَز الإنساني والفكري، وليس على المظاهر المادية.

الثقافة في الاتجاه المادي:

من التعريفات التي تتبنى هذا الاتجاه المعرفي في تفسير الثقافة:

- "الثقافة هي الكل العام المنظِّم لأسلوب الحياة بما فيها من قيم ومعتقدات ومؤسسات، ويتم توارثه عبر التعلُّم". وهذا التعريف يعتبر انتقال الثقافة عبر التعليم والاكتساب، وليس عبر التوارث فقط.

- "الثقافة هي نمط السلوك الناتج عن التفاعلات الاجتماعية". وهو هنا يشير إلى التفاعلات بين الطبقات الاجتماعية المختلفة كما في وجهة النظر الماركسية.
- "الثقافة هي كل السلوكيات التي ينتجها الإنسان بوصفه عضوا في المؤسسة البشرية". فالسلوكيات ضمن هذا التعريف ناتجة عن المعتقدات والقيم والأفكار الخاصة بالمؤسسة البشرية.
- "تنبع الثقافة من خلال النمو والانتقال البشري، وتلعب اللغة دورًا هامًّا في نقلها، كما تحملها مؤسسات التعليم والإعلام في خطابها".
- "الثقافة هي سجل كامل لتاريخ الإنسان ومُنجَزَه، وينتقل وراثيًّا إلى الأجيال المتعاقبة". وهذا التعريف يعتبر انتقال الثقافة عبر التوارث وليس الاكتساب.

وتتكرَّر في هذه التعريفات تعبير "مُنْجَز"، وليس بالضرورة أن يكون هذا المنجَز الإنساني إيجابيًّا، فهذا المنجَز يشمل الأمور السلبية أيضا مثل الحروب.

التفضيل بين الثقافات المتعددة:

كما وقع الاتجاه المادي في خطأ تصنيف الشعوب بناءً على سلوكياتهم، حاول الاتجاه المعرفي أيضا تصنيف الثقافات إلى ثقافات **أساسية (مشتركة)** وثقافات **هامشية**، وقام هذا التصنيف في الأساس على مدى الانتشار، وهو ما أدى إلى مزيد من التفتيت الثقافي، بل قد يكون هذا التقسيم مبنيًّا في الواقع على عدم قدرة أحد الهُوُيَّات على التأقلم مع غيرها من الثقافات في نفس المجتمع، فتصبح ثقافتها مهملةً ومهمَّشَة، بينما تكون الثقافة الشائعة في المجتمع هي الثقافة الأساسية.

من الاتجاهات التي كانت ترى ضرورة أن تكون الثقافة جامعة منتشرة، وأن نبحث دائما عن المشترك الثقافي وندعمه ونقوِّيه، وأن نقاوم التشظِّي الثقافي ونَحِدَّ من الثقافات الفرعيَّة، هو اتجاه الرومانتيكيُّين. بينما على النقيض تمامًا نجد تيار ما بعد الحداثة يدعو إلى قبول التنوع والتشظِّي الثقافي داخل المجتمع الواحد، بل تجد فيه اهتماما وتركيزا كبيرا على كل ما هو أكثر تهميشًا.

ومن آثار انتشار منهج ما بعد الحداثة قلة الاهتمام بالثقافة الأساسية للعالم الإسلامي أو العربي، في حين تجد اهتماما كبيرا بثقافات مهمشة للغاية ربما تكون مخالفة للأعراف والتقاليد السائدة في المجتمع، كقضايا التحول الجنسي مثلا، والتي لا تؤدي إلا إلى مزيد من التشظي الثقافي، ولا تعبرِّ عن

الثقافة العربية والإسلامية، كما يقل الاهتمام بالثقافات ذات المنتج الكبير كالثقافة الإسلامية والعربية، وفي المقابل قد تُنْفَق أموالا كبيرة لدراسة فلكلور شعبي أو ثقافة قرية مهمَّشة بعيدة.

المحددات الأساسية للثقافة

فيما يلي بعض المحددات الأساسية التي تلعب دورًا أساسيًّا في تشكيل الثقافة الخاصة بالشعوب والتأثير فيها والتأثُّر بها.

الثقافة والدولة والأمة:

سبق أن هناك اتجاهين أساسيين لتفسير الثقافة، هما الاتجاه المادي والاتجاه المعرفي. وعند الحديث عن الثقافة وعلاقتها بالدولة نجد أن بعض مناهضي الاتجاه الرأسمالي يرون أن الاتجاه المادي في تفسير الثقافة هو في الحقيقة بعض الأنماط التي أراد أصحاب الاتجاهات الرأسمالية الترويج لها في شكل ثقافة لخدمة مذهبهم الرأسمالي.

يُعْتَبَرَ إيجلتون (Terry Eagleton) أحد أبرز مَن درسوا هذه العلاقة وعبَّروا عنها، ويظهر ذلك في أحد مقولاته الشهيرة: "السياسة هي الدولة، والثقافة هي الأُمَّة"، ومقولته: "السياسة توحِّد، والثقافة تفرِّق".

فأما كون السياسة توحِّد والثقافة تفرِّق، فيمكن تفسيره من خلال مثال الاتحاد الأوروبي، فالدول الداخلة في هذا الاتحاد لها ثقافات متفرِّقة ومختلفة في أشياء كثيرة ومتنوعة، إلا أن السياسة نجحت في توحيد هذه الشعوب المتفرِّقة، حتى وإن كان ذلك قد استغرق وقتًا ومجهودا كبيرا.

ولا شك أن إيجلتون يتحدث عن الواقع الذي يعيش فيه، ولا يمكن أن تعمَّم مقولاته هذه على جميع الحالات، إذ نجد مثلا في عالمنا الإسلامي العربي دولاً كثيرة لم تنجح السياسة في توحيدها، بل ربما كان للسياسة أثرًا في زيادة مشكلاتها وتفرُّقها، مثل السودان وجنوب السودان.

وأما كون السياسة هي الدولة والثقافة هي الأُمَّة فيوضِّحُها مثال الهجرة، فمثلا إذا قام بعض المسلمين بالهجرة إلى أحد الدول الأوروبية، تجد أن المتطلبات النظرية المطلوبة منه قد يتمكن تحقيقها لينضم بالفعل إلى هذه الدولة سياسيًّا، بينما يظل هذا الشخص منتميًا إلى ثقافته الإسلامية ولعِرْقِه الأصلي فكريًّا، ويحرص على تعليم أولاده هذه الأنماط الثقافية التي خرج منها، ولذلك فإن مفهوم الأمة أكثر اتساعًا وأكثر رسوخًا من المفهوم السياسي للدولة.

الثقافة والدين:

يرى إيجلتون أن الثقافة ذات صلة كبيرة بالعقيدة والدين، وأنه لولا الدين لَضَعُفَتْ الثقافة ووَهَنَتْ. ومن المثير أن إيجلتون قد فَسَّر الاتحاد الحالي في أوروبا بأنه اتجاه لتكوين حِلْف مقدَّس تجاه العدو، كالحلف الأوروبي الذي تشكَّل في القرن الرابع عشر والخامس عشر ضد المسلمين، والمعروف باسم الحملات الصليبية، ولا شك أن هذا التفسير يوضِّح سبب رفض عضوية بعض الدول في هذه الأحلاف. وبنفس الطريقة يمكن تفسير الأحلاف الأخرى، كحلف الناتو مثلا، فهي عبارة عن مصالح سياسية واقتصادية مشتركة دفعت هذه الدول إلى الوحدة.

فإيجلتون يفسِّر التوجه إلى مثل هذه الأحلاف بأنه إيمان بحتمية قيام أحلاف بروح مسيحية مقدسة ضد العدو، حتى ولو لم يعد هذا العدو موجودا، لأن مثل هذه الروح هي القادرة على إعادة إحياء الثقافة الأوروبية وإعطائها زخمها. ومع ذلك فقد حذر إيجلتون من الاستمرار في مثل هذا الاتجاه، لأنه إما أن يتسبَّب في مزيد من العنف والدمار والكراهية في هذا العالم، أو سيولِّد حالة طائفية يتشظَّى العالم على إثرها بناءً على موقفه من هذا العدو الذي قد لا يكون موجوداً أصلا.

ولا شك أن بعض هذه الأمور تحتاج إلى تفسير في ظل العَوْلَمَة السائدة في عالمنا ومحاولة تنميط العالم وَفْقًا للثقافة الغربية، فالغرب يحرص على نشر ثقافته تلك من أجل تحقيق بعض المكاسب الاقتصادية، بل ويعتبر أي أمَّةٍ تخرج عن هذه الثقافة أمَّةً مارقة همجية يجب نبذها والقضاء عليها، فإذا ما نجح الغرب بالفعل في نشر هذه الثقافة وتعميمها في العالم كله كما يطمح، فمن سيكون العدو حينئذ؟ فإذا كانت هناك ضرورة دائمة لوجود عدو تتوحد الأمة المسيحية ضده فما هو موقفها من العولمة؟ ولذلك يحاول الغرب تطبيق العولمة بطريقة انتقائية للحفاظ على بعض الفئات في خانة العدو حتى تتمكَّن الحضارة الغربية من استحضار خصوصيتها وتميُّزِها، وفهم حدودها.

الثقافة ورؤية العالم:

يُقْصَد برؤية العالم تصوُّر الشخص أو الفئة عن العالم الذي يعيش فيه، وقدرته على تفسيره، ومعرفة طبيعة وظيفته فيه، وحدود الدور المُتَاح له، وضبط علاقته بسائر البشر وبالبيئة المحيطة.

يرى بيتر بيرجر (Peter L. Berger) أن الثقافة هي محاولة لاستكمال أو معالجة الخلل الناتج في علاقة الإنسان بالبيئة المحيطة، وهذا الخلل قد يكون عدم قدرة الإنسان على فهم بعض الأمور. ومن

الملاحظ هنا أن بيتر بيرجر يرى الثقافة شيئًا مكمِّلا وليس أساسيًّا، وإن كانت ضرورية لأن الإنسان لا يمكن أن يعيش في عالم غامض لا يفهمه، إلا أنه كلما تقدَّم الإنسان وتكشَّف غموض العالم بالنسبة له فهو لم يعد في حاجة للثقافة من وجهة نظر بيرنر.

فمثلا تفسِّر هذه النظرية تصوُّر الإنسان البدائي الذي اعتاد على الحياة داخل مدينته الصغيرة المحاطة بالأسوار، وارتبطت علاقاته وحياته واطمئنانه بهذا المحيط الضيق داخل المدينة، فكانت ثقافته وتصوُّره أن خارج هذه المدينة يوجد الأشباح واللصوص وكل ما هو ضار وسيئ، فهذه الثقافة في الحقيقة جاءت لتفسير هذا الغموض الموجود خارج أسوار مدينته بما يتوافق مع مصالحه المادية والمعنوية.

ولا شك أن هذه النظرية هي انتصار للجانب المادي على الجانب المعنوي. ومن أهم الاعتراضات على هذه النظرية هي كوننا لا نزال في حاجة إلى الثقافة مع ما وصل إليه الإنسان في عالمنا من تقدُّم، وما وصل إيه طموحه وإنجازاته.

نشأت بعض النظريات التي بَنَت على كلام بيرنر مع بعض التعديلات، مثل ماري دوغلاس (Mary Douglas) والتي وافقت بيرنر إلا أنها استثنت بعض الجوانب التي سيظل فيها الإنسان في حاجة للثقافة مهما أزال من غموض العالم المحيط به، وهو الجانب المعياري من الصواب والخطأ، فهذه المعايير تصيغها المجتمعات في ثقافتها، ولذلك ما يتقبَّلُه المجتمع الغربي قد يكون مرفوضًا في المجتمع الشرقي نتيجة لاختلاف الثقافة بينهما، والعكس.

وتعتبر رؤية بيرنر وماري دوغلاس سطحية بالنسبة لمجتمعنا الإسلامي، لأن الإسلام جاء بالفعل بتنظيم رؤية الإنسان للعالم، وعلاقته بالله، وعلاقته بالطبيعة، وعلاقته بأخيه الإنسان، دون أن يكون هناك خلل.

الاتصالات الثقافية والنظرية التطورية

<u>تطور الاتصالات الثقافية:</u>

تحدث الاتصالات الثقافية بين الحضارات المختلفة حول العالم منذ القِدَم، لكنها مرَّت بمراحل تطوُّر عديدة، يمكن فهمها عبر مرحلتين أساسيتين؛ قديمة وحديثة.

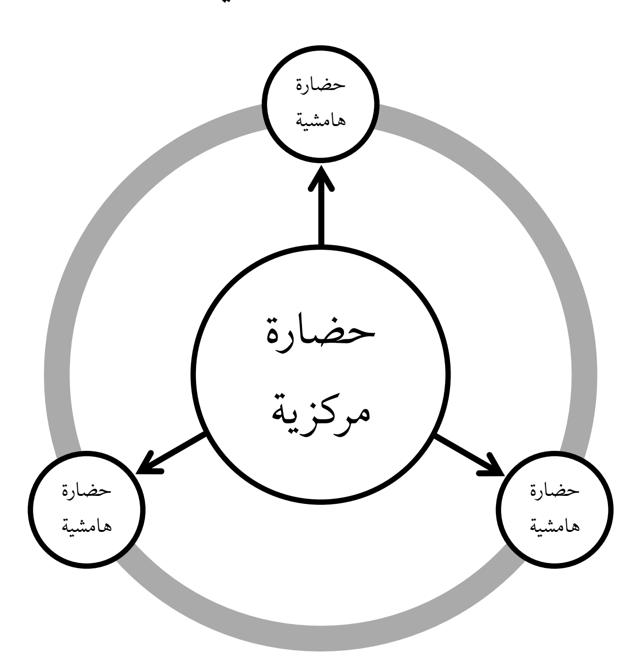
الاتصالات الثقافية قديمًا:

قُسِّمَت الثقافات أو الحضارات قديمًا إلى نوعين:

1- حضارة مركزية (مركز): وهي الحضارة الأكثر بروزاً وتحكُّمًا في مجريات الأمور.

2- حضارة هامشية (طرف): وهي الحضارة ذات التأثير البسيط في أحداث العالم.

وكانت الحضارات الهامشية (الأطراف) تدور باستمرار في فلك الحضارة المركزية (المركز)، وتكون منقادة لما تفرضُه هذه الحضارة المركزية عليها بشكل أو بآخر، ولا يمكن تصوُّر قدرة أحد هذه الحضارات الهامشية على التأثير أو بدء اتصال حضاري أو محاولة إحداث تغيير كبير في العالم.



ومما تميَّز به الاتصال الثقافي في هذه الفترة ما يلي:

1- الاتصال بين المركز والطرف كان أُحادِيَّ الاتجاه، فالمركز يحدِّد بداية الاتصال ومحتواه وآلياته، وليست لدى الطرف خيارات كثيرة، فهو مضطر لقبول الاتصال والتفاعل معه وَفْق ما يرغب المركز.

2- قد يحاول أحد الأطراف القيام بما يمكن تسميته بالممانعة أو الانغلاق وعدم قبول الاتصال مع المركز، ولكن عادةً ما ينتهي هذا الأمر بفشل ذريع من قبل الطرف، حيث تتواطأ حينها جميع الحضارات المركزية والهامشية على وصف هذه الحضارة الممتنعة بأنها حضارة مارقة غير متقدِّمة، يقوم عليها مجموعة من الهمج والرعاع الذين لا يستطيعون تقبُّل هذا التقدُّم القادِم من المراكز.

3- احتاج الاتصال الثقافي قديمًا إلى تكاليف عالية وموارد كثيرة للتغلب على الجغرافيا الصعبة والزمن الطويل الذي يستغرقه إتمام الاتصال، بل كان يصل أحيانا إلى الاحتلال العسكري في سبيل إتمام هذا التواصل، ومن أمثلة ذلك التكلفة الكبيرة لغزو الإسكندر الأكبر لمصر والشرق الأوسط.

4- إذا ما انهارت ثقافة مركزية (قطب) فإنها كانت تتسبب في انهيارات متتالية للأطراف التي كانت تدور في فلكها، كما حدث عند الاتحاد السوفيتي مثلا.

5- كان نجاح الطرف وتقدُّمُه واستمراره معتمدًا في الأساس على قدرته على التأقلم مع حضارة المركز.

6- على الرغم من سيادة هذا النوع من الاتصال الثقافي لفترة زمنية طويلة، على جميع المستويات العسكرية والسياسية والاقتصادية، إلا أن بعض الثقافات الهامشية كانت لها مساهمات جيدة على المستوى الحضاري، ولكن المركز حرص دائما على طَمْس هذه المساهمات ليبقى هو الوحيد البارز في الصورة.

الاتصالات الثقافية حديثًا:

بدأت الصورة التقليدية للتواصل الثقافي في التغيُّر مع بدء الثورة التقنية في عالم الاتصالات خلال النصف الثاني من القرن العشرين، إذ أصبح من الممكن نقل الأحداث عبر الأقمار الصناعية إلى العالم كله في نفس وقت حدوثها أو بفارق زمني بسيط جدا.

حقَّق هذا التطور في عالم الاتصالات قدرًا من التزامن سهَّل التواصل بين الحضارات، كما تغلَّب على العوامل الجغرافية، فأصبح من الممكن لشخص يعيش في بلد عربية أن يتابع حدثًا يقع أوروبا في نفس وقت حدوثه، ولكن بقي عائقان أساسيان يعيبان هذا الاتصال، هما:

1- الانتقاء: لأن هذا الشخص البعيد مسموح له فقط بمشاهدة صورة معينة من الحدث.
2- المحدودية: لأن الشخص البعيد لا يمكنه المشاركة في الحدث الذي يتم نقله، أو أن يبدي رأيه فيه، فلا يمكنه عكس الاتصال ومحاولة التأثير في الحدث.

هذان العيبان جعلا التواصل في هذه الفترة أشبه بالتواصل الحضاري قديمًا، حيث لا تزال الثقافة الهامشية تدور في فلك الثقافة المركزية ولا تستطيع التأثير فيها.

أما الطفرة الأكبر التي غيَّرت شكل الاتصال الثقافي فتتمثل في ظهور وسائل الاتصال الإلكترونية وشبكة الإنترنت، إذ حقَّق هذا التطور ثنائية الاتصال، ومكَّن الطرف من التأثير في الحدث والمشاركة فيه، وصار العالم عالَمًا واحدا والزمن زمنًا واحدًا، وهو ما عُرِف بعالم ما بعد التزامن.

بالإضافة إلى ذلك، أدى هذا التطور إلى قدر من العشوائية، إذ صار من الممكن في أي لحظة أن يتصل الطرف بالمركز أو الطرف بطرف آخر أو المركز بالطرف، وهكذا، بل قد يحدث اتصال بين أشخاص يلتقون لأول مرة فقط لأنهم تحرِّكُهم هواجس مشتركة، فصار التواصل الثقافي في صورة جديدة غير مخطَّط لها ويستحيل توقُّعُها أو توقُّع مخرجاتها.

فسرعة الاتصال في عالم ما بعد التزامن تشكِّل للمركز ميزةً وعيبًا، فهي ميزة من حيث أنها تسمح بالتغلُّب على المشكلات الجغرافية، وتختصر الوقت، وتمكِّن المركز من الوصول إلى أماكن كان يصعب الوصول إليها قديمًا، وربما كلَّفَتْه التحرك بالجيوش والغزو العسكري ليحقِّق الاتصال الثقافي الذي تطمح إليه معها، ومع ذلك فهي عيب من حيث أنها تمكِّن الطرف من عكس الاتصال بسهولة والتأثير في الأحداث، بالإضافة إلى اتخاذ الاتصال صورة عشوائيَّة يصعب السيطرة عليه.

آلية الاتصال الثقافي:

تمرُّ آليَّة الاتصال الثقافي أثناء إنتاج أي عنصر ثقافي جديد بأربعة مراحل أساسية، هي:

1- الوسطاء: يعتبر العنصر الثقافي الجديد شيئا دخيلاً على المجتمع، ولذلك يحتاج في بداية نقله إلى وسطاء يطلعون على ما يحدث في الخارج ثم ينقلون إلى الداخل ما يقتنعون به مع توضيح إيجابياته وفوائده للمجتمع، وعادةً ما تتشكَّل هذه الطبقة من المثقفين والمترجمين والصحافيين.

2- التسويق: يعمل الوسطاء على تحويل العنصر الثقافي الجديد من مجرد عنصر دخيل إلى عنصر مُمْكِن في المجتمع، وحينها تأتي مرحلة الترويج لهذا العنصر الثقافي الممكِن، حيث يتم توضيح ما يمكن أن يحقِّقُه هذا العنصر من مكاسب للمجتمع في حال تبنِّيه له كجزء من ثقافته.

3- إعادة الإنتاج: وهي دراسة كيفية إلباس هذا العنصر الثقافي الجديد ثيابًا وطنية، ومَنْحِه صفات وطنية تجعله وكأنه قد تم إنتاجه داخل هذا الوطن، ويعمل على ذلك رعاة من داخل الوطن يتبنُّون العنصر الجديد ويقومون بإعادة إنتاجه بما يتوافق مع ثقافة الوطن.

4- التبنِّي الثقافي: يتحول العنصر الجديد في النهاية إلى شيء تقليدي، وربما إلى شيء موروث.

مع العلم أنه ليس كل عنصر ثقافي قادر على المرور بجميع المراحل الأربعة السابقة بسهولة، فقد تتوقف آلية تبنِّيه عند أحد هذه المراحل ولا تتجاوزها، فعلى سبيل المثال لا يزال فن الأوبرا أحد العناصر الدخيلة ضيقة الانتشار في مجتمعنا رغم مروره بمرحلة الوسطاء الذين تبنُّوه، ثم مرحلة الترويج، إلا أن إعادة إنتاجه كانت ضيقة للغاية، ولذلك لم تتم آلية تبنِّي فن الأوبرا ضمن ثقافة المجتمع، كما أنه ربما لم تكن للمركز مصلحة كبيرة في نشره، ولذلك لم يبذل الكثير من الجهد في سبيل ذلك، بينما قد يضغط المركز بقوة في حالات أخرى، وربما يشتري مَن يعيدون الإنتاج في ثوب وطني، إذا كانت ما كان العنصر الجديد سيحقِّق له مصالح سياسيَّة أو اقتصادية أو عسكرية هامة.

ويلاحظ أن طبقة الوسطاء في زماننا لم تَعُد مقتصِرَة على مجموعات محدَّدة كالمثقفين أو المترجمين أو الصحافيين، إذ تستطيع الآن شريحة متسعة من المجتمع أن يطلعوا على ما في الخارج وأن يتبنُّوه ويحاولوا إعادة نشره وترويجه، بل قد يشمل ذلك المجتمع كله تقريبا مع تطوُّر الاتصالات ووسائلها.

محتوى الاتصال الثقافي:

اتفق الباحثون على أن الرسائل أو المحتوى الثقافي الذي يتم تبادله بين المراكز والأطراف أثناء تواصلهم يمكن تصنيفه إلى نوعين أساسيين، هما:

1- تِقَنِي (فنِّي): ولا يعنى به الجانب التكنولوجي فقط، وإنما كل ما له علاقة بأنماط الحياة المختلفة، فيشمل أنماط الموضة، ومحلات الوجبات السريعة، وأنماط المعيشة، وما شابه ذلك.

2- أيديولوجي: وهو مجموعة من الأفكار والمعتقدات هناك رغبة في نقلها.

كما اتفق الباحثون على أن المحتوى التقني الفني أسهل في نقله (عبر المراحل الأربعة سالفة الذكر) من المحتوى الأيديولوجي، إذ أن نقل المحتوى الأيديولوجي يتطلب مخاطبة الوعي الباطن، وقد يتطلب تغيير بعض الأمور الصلبة المتأصِّلَة، كالأمور المرتبطة بالمعتقدات أو الموروثات القديمة.

النظرية التطورية:

استطاعت الحضارة الأوروبية السيطرة على العالم من خلال عدة أمور، يمكن تلخيصها فيما يلي:

1- جعل اللغة الإنجليزية هي اللغة الرسمية المعتمدة في العالم، فهي تحظى بأكبر قدر من التشجيع والاعتماد في كل المجالات والأوراق العلمية والبحثية، حتى أن معظم المنصات والدوريات البحثية الشهيرة لا تقبل النشر إلا باللغة الإنجليزية، وهو ما يعكس الحرص الشديد على أن تكون هذه اللغة هي اللغة الأولى للمعرفة والأعمال.

2- أصبح النمط التعليمي الأوروبي هو النمط الدولي المعترَف به على مستوى العالم، وتقاس درجة تقدُّم أي نمط تعليمي آخر بمدى قربِه أو بعده من هذا النمط الأوروبي.

3- أصبحت الهياكل المعتمدة للشركات والكيانات الاقتصادية على مستوى العالم مستمدَّة في الحقيقة من الهياكل الأم التي تم تصديرها للعالم على أنها الأمثل ولا يمكن أن نجد أفضل منها.

4- وُضِعت مؤشرات التنمية المعتمدة في العالم بحيث تقيس معدلات الاستهلاك وليس معدلات الإنتاج، فمثلا يتم تشجيع الدول على زيادة معدلات استخدامها للهواتف المحمولة (الجوَّالات)، بينما قد لا يُسْمَح لها بإنتاج أي شيء متعلِّق بهذه الجوالات.

وقد كان اعتماد وفرض هذه العناصر (اللغة والنمط التعليمي والاقتصادي والتنموي) على أنه الأفضل على المستوى العالمي مبنيًّا على قَدْر من العنصرية وتحقير المجهودات والقدرات البشرية الأخرى، بل قَدْر من الالتواء، كما يظهر في عدم السماح للمجتمعات الأخرى بإنتاج التقنية أو المعرفة، وإنما يتم تشجيعها على الاستهلاك فقط.

وتمثِّل هذه النقاط الأربع النظرية التطوريَّة للحضارة الأوروبية، التي تفترض أن المجتمعات البشرية لا يمكن أن تتطوَّر وتتحضَّر إلا عبر مسار واحد، يتم بقيادة أوروبا، وينتهي بالوصول إلى ما عليه أوروبا، فهي التي تملي على المجتمعات الخطوات التي يجب اتباعها كي تحقق التقدُّم والحضارة، كما أنها

وضعت معيارًا وحيدًا لقياس مدى التقدم الذي تحقّقه المجتمعات في هذا المسار، وهو المعيار التقني، وتحديدا استهلاك وانتشار التقنية وليس انتاجها أو تصنيعها.

الإسلام والاتصال الحضاري:

الإسلام وصياغة الثقافة:

اعتمد الإسلام نظامًا مؤسسيًّا كاملا منذ البعثة النبوية وحتى انهيار الخلافة العثمانية، إذ لم يفصل بين العبادات والمعاملات، وكان المسجد مؤسسة كاملة تتضمن كل شيء تقريبًا حتى السياسات الخارجية للدولة، وتم صياغة الثقافة ضمن الإطار الإسلامي، بما يتوافق مع العقيدة الإسلامية بشمولها وكثافتها.

أما عقب انهيار الخلافة العثمانية فقد أدى الاستغناء عن الإسلام كنظام مؤسسي من خلال الفصل بين المعاملات والعبادات إلى اختفاء الرابط الثقافي والعقائدي الذي كان ضم الشعوب الداخلة تحت الخلافة والمنتشرة على مساحات متسعة من العالم، فصار من الضروري التفكير في ملء الفراغ الناتج عن اختفاء هذا العامل الثقافي، وبرزت أسئلة ثقافية تقليديَّة تشبه إلى حد ما أسئلة الإنسان الأول، الذي تساءل عن هذا العالم الذي اعتبر مجهولاً بالنسبة له.

وكما أن الإنسان الأول حاول تفسير العالم الغامض حولَه عن طريق وضع الأساطير والافتراضات القائمة على أن كل شيء خارج معرفته هو سيئ ومخيف، كانت الثقافة الوطنية التي هي انعكاس مباشر للأفكار القومية هي الثقافة الأبرز خلال المرحلة التي تلت انهيار الخلافة، إذ تركِّز هذه الثقافة على أن الأمان محصور داخل المحيط المعروف للدولة، وأن كل ما هو خارجها شر وخوف، وقد ساعد على انتشار هذه الثقافة تشجيع وإذكاء بريطانيا لها، باعتبارها عامل مساعد على تنفيذ مخططاتها في وراثة الدول العثمانية وممتلكاتها، حتى أن كثيرا من المنح الدراسية لأبناء هذه الشعوب ركَّزَت على دراسة الفلكلور والأدب الشعبي للمساعدة في تعميق وتأصيل الأفكار القومية.

ثم تعمَّق الإشكال حينما نُظِر إلى هذه الثقافة الوطنية بعد ذلك على أنها تضم العديد من الثقافات الأخرى، فأصبح هذا الجزء الثقافي الذي نتج في الحقيقة عن تشظِّي الثقافة الأم الإسلامية، أصبح ينظر إليه على أنه يضم مجموعة أخرى من الثقافات، وهي عملية انشطارية لن تنتهي إلا بوضع حدود لها.

الإسلام والتصنيف الحضاري:

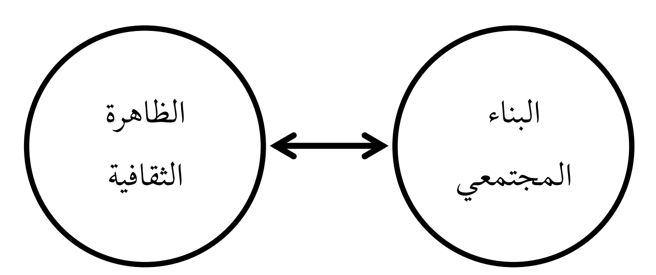
كان معيار العقيدة هو المعيار الأساسي لتصنيف الإسلام للحضارات والثقافات الأخرى أثناء التواصل معها، فكانت الدول تصنَّف على أنها دار سلم، أو دار عهد، أو دار حرب، وهو تقسيم متوازن يراعي جميع العوامل مثل العهود بين المسلمين وغيرهم.

بدأ هذا التصوُّر أو التصنيف في التلاشي منذ انهيار الخلافة العثمانية، ومنذ تلك اللحظة وحتى الآن لم يتمكَّن العالم العربي أو الإسلامي من صياغة أي تصوُّر منطقي آخر يوضِّح علاقة الدول العربية بالعالم، سواء على المستوى الثقافي أو السياسي، وهو ما أدى إلى تفسير هذه الدول لغزو بريطانيا أو فرنسا لها في تلك الفترة بطريقة غربية مبنيَّة على رؤىً مستوحاة من الخارج، فظهر مصطلح الاستعمار الذي ليس فيه أي خصوصية تميِّز رؤية هذه الدول للعالم، بينما كان تفسير هذا الغزو بناء على معيار التصنيف الإسلامي يقتضي وصفها بأنها حملات صليبية.

الدراسات الثقافية

تعريف الدراسات الثقافية:

الدراسات الثقافية هي حقل أكاديمي يستهدف دراسة الظاهرة الثقافية في مجتمع ما، عن طريق دراسة كيفية قيام هذا المجتمع (البناء الاجتماعي) بإنتاج ونشر الأفكار والمعاني (الظاهرة الثقافية)، ويوظِّف في سبيل ذلك عددًا هائلاً من الأدوات، كعلوم الاتصالات، والإعلام، وعلوم الاقتصاد، وعلم الاجتماع، والنظرية الأدبية، والنظرية الاجتماعية، والفلسفة، والأنثروبولوجيا، وغيرها.



يمكن اعتبار البناء المجتمعي هو الواقع الموجود، أما الظاهرة الثقافية فهي تصوُّرات عن هذا الواقع، تتضمن ما هو موجود وما هو مأمول أيضا، فالظاهرة الثقافية ليست بالضرورة معبرة دائما عما هو موجود بالفعل، إذ قد تتضمن أشياء مستقبليَّة يأمل المجتمع في تحقيقها.

وترجع الخطوات الأولى لتكريس علم الدراسات الثقافية إلى إنشاء مركز الدراسات الثقافية المعاصرة في إنجلترا، بقيادة ستيوارت هيل وريتشارد هودجارت، وقد ركَّز هذا المركز على دراسة أعمال باختين وجرامشي.

اتجاهات الدراسات الثقافية:

يعتبر المفكِّر الإيطالي أنطونيو جرامشي واحدًا من أشهر المفكرين، خاصَّةً لدى التيارات اليسارية، وقد قام بدراسة العلاقة بين الثقافة السائدة في المجتمع الإيطالي بالطبقات المسيطرة على السلطة في البلاد، وتركَّزَت أفكاره حول وجود ثقافة شعبية مهمَّشَة، وثقافة أخرى سائدة هي ثقافة الإقطاع أو ثقافة أصحاب رؤوس الأموال وأصحاب السلطة، ونادى بضرورة تطوير الثقافة الشعبية المهمَّشَة لمواجهة ثقافة الإقطاع، وتمكينِها من تحسين وضعها والتحوُّل إلى ثقافة حاضرة في المجتمع.

وتتلخَّص العلاقة بين ثقافة المجتمع وسيادة طبقات معينة فيه، من وجهة نظر جرامشي، فيما يلي:

1- لاحظ جرامشي أن اللهجة السائدة في جميع أنحاء إيطاليا هي لهجة فلورانسا الشمالية، فهي اللهجة الرسمية ولهجة الأدب والإعلام والمراسلات، وفلورانسا في ذلك الوقت هي أرقى مناطق إيطاليا، ويعيش فيها وجهاء الدولة والعاملين بالصناعة وأصحاب رؤوس الأموال، وهو ما دفعه للتساؤل عن ما يميِّز هذه اللهجة في الحقيقة ويجعلها سائدة، هل هو بسبب ثراء مفرداتها أو بنائها اللغوي أو تعبيراتها، أم أن الأمر متعلِّق بنجاح الطبقة السائدة في جعل لهجتها هي السائدة أيضا. وبالفعل لم يجد جرامشي في لهجة فلورنسا الشمالية ما يميِّزُها عن غيرها غير أنها لهجة الطبقة السائدة.

2- قسَّم جرامشي الوعي إلى: وعي سائد، ووعي مهمش. وقال بأن السبيل لفهم أسباب تهميش وعي ما وسيادة آخر، هو تحليل ثقافة المجتمع ومعرفة أسباب ضعف الطبقة المهمشة فيه، ولابد كي تتمكن هذه الطبقة المهمَّشَة من المطالبة بحقوقها والتواجد على الساحة من علاج الضعف فيها.

3- صاغ جرامشي مصطلح الهيمنة، ويعتبر أبرز مَن تكلموا فيه وفي علاقتها بالأيديولوجيا. وتتلخص العلاقة بينهما من وجهة نظره في أن الأيديولوجيا التي تتبنَّاها طبقة معينة هي التي تدفعهم إلى الهيمنة، وما أن تتم الهيمنة لهم حتى يبدؤوا في إنتاج وتطوير أيديولوجيا تضمن استمرار هيمنتهم، فهي علاقة تبادلية للمنافع والمصالح. وتظهر هذه الفكرة في أحد مقالات جرامشي عن الجرائد في إيطاليا، والتي دعا فيها إلى مقاطعة هذه الجرائد لأنها خاصة بالطبقة الرأسمالية وتدعم هيمنتها، إذ أن الطبقة المهيمنة هي التي أصدرت هذه الجرائد، ثم بدأت الجرائد ذاتها في تمجيد الطبقة المهيمنة، والإساءة لكل مَن يعارضها، وإقناع الناس بأن واقع سيطرة هذه الطبقة هو أفضل ما يمكن الوصول إليه، فإذا ما قاطع العمال مثل هذه الجرائد فإنهم يضعفون هيمنة هذه الطبقة المسيطرة.

4- أرجع جرامشي فشل النموذج الإيطالي عن إنتاج فعل ثوري، رغم أن جميع الظروف من وجهة نظره مهيَّأة لكي يثور الناس ضد الطبقات المسيطرة، أرجع سبب ذلك إلى عاملين أساسيين: الأول هو التشظِّي الثقافي في إيطاليا، فهي تحتوي على ثقافات متعدِّدَة ومتباينة، ولا يُسْمَح لهذه الثقافات بالتفاهم أو الالتقاء في نقاط مشتركة. والثاني هو التعدُّد اللغوي، فقد كانت بإيطاليا العديد من اللهجات، تكاد كل منها أن تشكِّل لغة قائمة بذاتها. وهذه الحالة من التشظِّي والتعدُّد قد عملت الطبقة المهيمنة في إيطاليا على تكريسها واستمرارها للحفاظ على هيمنتهم.

ولذلك رفع جرامشي من أهمية الفعل الأدبي واللغوي والثقافي في تشكيل المجتمع، حتى أنه أطلق مصطلح القيادة الثقافية، على نحو مشابه للقيادة السياسية والدينية وغيرها، وقال بضرورة وجود قيادة

ثقافية يُنَاط بها صياغة رؤية للمستقبل لتوحيد وموائمة الرؤى والتصورات في ثقافة المجتمع الواحد، من أجل منح الطبقة المهمشة وثقافتها القدرة على تطوير نفسها والتقدُّم في المجتمع.

ولذلك يمكن القول بأن الدراسات الثقافية تأخذ أحد اتجاهين متباينَيْن بناءً على نظرتها للعلاقة بين الثقافة المهمَّشَة والسائدة؛ الاتجاهان هما: إنتاج الثقافة المشترَكَة، أو الاهتمام بالثقافة المهمَّشَة.

أولا: إنتاج الثقافة المشتركة:

يعتبر ريموند وليامز أحد أهم مَن وضَّحوا هذا الاتجاه ومضامينه. وتتلخص أفكاره في النقاط التالية:

1- الثقافة مادة مهمة لتحقيق التماسك الاجتماعي، وذلك من خلال خلق القيم والمعاني المشترَكَة، كما أن التشظِّي الثقافي أمر مضِرٌّ بالدولة. ولذلك لابد من الاهتمام بالثقافة المشترَكَة وتوطيد دعائمها، أو حتى انتاجها إن لم تكن موجودة بالفعل.

2- ينبغي الاهتمام بالآداب الكلاسيكية للمجتمع، وتدريسها في المدارس والجامعات، إذ تحتوي هذه الآداب على القيم المشترَكَة المرغوبة التي تؤسِّس لتماسك المجتمع.

3- الثقافة المشترَكَة هي أساس النظام، وبديلُهَا هو الغرق في الفوضى والتشظِّي.

4- يعتمد تنفيذ مثل هذه الأفكار في واقعنا على الدولة بشكل أساسي، فالدولة هي التي تحدِّد ما يتم تدريسه في المدارس والجامعات، وهي التي تضع الآداب المعترَف بها، ولو بشكل غير مباشر، كما يحدث من خلال جوائزها التشجيعية على سبيل المثال، أو ما تهتم به في جرائدها الرسمية.

ويعتبر الاهتمام بالأدب ورفع قيمته أحد أبرز إيجابيات هذا الاتجاه، بينما تعتبر أهم سلبياته:

1- إهمال الآداب الشعبية، إذ يرى هذا الاتجاه أن مثل هذه الآداب تكرِّس التشظِّي الثقافي.

2- فكرة وصاية الدولة، إذ يفترض هذا الاتجاه أن الدولة دائما رشيدة وعادلة، وأنها ستختار بالفعل ما يحقِّق الثقافة المشترَكَة بين أبناء الوطن الواحد، وهو شيء لا يمكن تأكيده، بل إن كل دولة في واقعنا تعمل على بقاء نظامها، وستهتم دائما بالثقافة التي تضمن لها ذلك.

ومن النماذج المشابهة إلى حد ما لنموذج وليامز؛ نموذج ليفز. وتتلخص الإضافات التي قام بها هذا النموذج فيما يلي:

1- الوضع المثالي لثقافة الأمة من وجهة نظر هذا النموذج هو التوحُّد بين الثقافة الشعبية والثقافة الرسمية، لكنه قرَّر أن هذه الوحدة صعبة بسبب اختلاف الروافد، ولذلك انتهى إلى نفس النتيجة التي توصَّل إليها وليامز بإهمال الأدب الشعبي، أو احتوائه في أفضل الظروف.

2- الوظيفة التعليمية والآداب هي المصدر الرئيس لتحقيق الثقافة المشترَكَة.

3- نبَّه إلى أن التقدُّم الصناعي أدى إلى آثار سلبية في إنتاج الثقافة المشترَكَة وتأكيد وحدة المضامين.

4- قسَّم الأعمال الأدبية التراثية إلى قسمين: الأول عظيم، يجب الاهتمام به وتدريسه والإبقاء عليه، والثاني دون المستوى، يجب التخلُّص منه وإهماله، لأنه لا يكرِّس الذوق الرفيع لأبناء الشعب.

فالوصاية والتصنيف موجودَيْن في كل مِن نموذج وليامز ونموذج ليفز، إلا أن وليامز أَسْنَد هذه الوصاية إلى الدولة، بينما لم يحدِّد ليفز إلى مَن تُسْنَد هذه الوصاية، ولم يحدِّد مَن الذي لديه مثل هذه القدرة على تقسيم الأدب إلى جيد وغير جيد، كما أن كلا النموذجين يهملان الثقافة الشعبية. ولذلك يمكن فهم اتجاه الثقافة المشترَكَة بأنه محاولة لتخطِّي الصراع الطَّبَقِي في المجتمع والحفاظ على نسيج الدولة ووحدتها، ولو كان ذلك على حساب إهمال الآخر وأدبِه الشعبي.

ثانيا: اعتماد ثقافة المهمش:

يمكن تلخيص ملامح هذا الاتجاه فيما يلي:

1- يركِّز هذا الاتجاه على أن الطبقات العاملة في المجتمع الحديث تعاني من التهميش الثقافي، وهناك حاجة لإعادة الاعتبار لثقافة هذه الطبقات وتمكينها في المجتمع.

2- تهميش ثقافةٍ ما لا ينطلق أبدا من ذاتها أو عوامل قصور أو ضعف كامنة بها، وإنما ينبع من تهميش أبنائها في الأساس، أو ما يسمَّى بالصراع الطبقي، ومحاولة الطبقة المهيمنة الحفاظ على مصالحها والإعلاء من ثقافتها ولغتها وأدبها وكل ما يتعلق بها، مع سَعْيِها لإهمال كل ما يتعلق بثقافة الآخر.

3- ليس لدينا مقياس لانتشار الثقافة، وليس مجرَّد نجاح مجموعة معيَّنة في فرض ثقافتها يعني أن هذه الثقافة هي المنتشرة بين كل طوائف الشعب، فمجرد التسيُّد لا يعني الانتشار.

وترجع أصول هذا الاتجاه إلى أعقاب انتهاء الحرب العالمية الثانية، حيث بدأ الاهتمام في أوروبا (على الأقل) بثقافة الطبقات التي كانت مهمَّشَة، إذ عانت أوروبا عقب الحرب من نقص شديد في الطبقات العاملة والمؤهَّلَة لتولي أنواع معينة من المناصب، فبدأت بالاهتمام بهذه الطبقات المهمَّشة حيث لم

تملك إلا ذلك لتعويض هذا النقص. ومن أمثلة ذلك، الدراسة التي أصدرها هودجارت عام 1975م عن ثقافة الطبقة العاملة في بريطانيا، حيث تناولت هذه الدراسة عددًا كبيرًا من النصوص والصور والمصادر التي رصد من خلالها هذه الثقافة.

وقد تبنَّى الاتجاهُ اليساري هذا الاتجاهَ قديمًا، واستخدمه لتوجيه الاتهام للطبقة الرأسمالية، بينما تبنَّتْه الدول الرأسمالية الآن لتستخدمه في توجيه اتهامات من قبيل إهمال الحريات لبعض الدول الأخرى، ولذلك فإن مثل هذه الاتهامات أصبحت أمرًا غير مفهوم الدوافع، إذ أن نفس المجموعات التي توجِّه الاتهام لغيرها بالتهميش الثقافي في بعض الأحيان، تتجاوز عنه أحيانًا أخرى.

وينبغي التنبُّه إلى أنه ليس بالضروري في عالمنا العربي حَصْرُ خياراتنا بين اعتماد ثقافة مشترَكَة أو الاهتمام بالثقافات المهمَّشَة، فقد تكون هناك مساحة لتبنِّي اتجاه هجين يجمع الخيارين معًا، ويؤكِّد هذا الأمر أن كلا الاتجاهَيْن المذكورَيْن يناقش الواقع قبل ثورة الاتصالات وتأثيرها في نشر الثقافات والتواصل بينها، أما الآن فقد تغير الحال فأصبح مثلا فرض ثقافة مشترَكَة أمرا صعبًا جدًّا.

<u>تطبيقات الدراسات الثقافية:</u>

تهدِف الدراسات الثقافية إلى دراسة الظاهرة الثقافية وفهم البناء العقلي للمجتمعات، وربما تجاوزت ذلك إلى التنبؤ بما يمكن اتخاذُه من تصرفات إزاء بعض الحوادث، وهي أهداف قد تكون مشروعة. أما الآن فقد تطوَّرت هذه الأهداف إلى حَدٍّ كبير، وأصبح الهدف الأساسي من الدراسات الثقافية هو التدخل الثقافي في حياة المجتمعات الأخرى بلا حدود، بهدف تحقيق مصالح سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية، كما في المحاولات القائمة لفرض نمط ثقافي واحد على العالم بأَسْرِه.

وفيما يلي نستعرض بعض الأمثلة التي توضح أهمية دراسة الظواهر الثقافية بتنوُّعِها واتساعِها، وكيف يمكن أن توظَّف دراسة مثل هذه الظواهر في حقل الدراسات الثقافية وتأثيرها في المجتمع، وذلك من خلال استعراض دراسة إدوارد سعيد لأوبرا عايدة، ولنظرية هجرة الأفكار في الزمان والمكان.

أوبرا عايدة:

ترجع ظروف إعداد الفنان الإيطالي فيردي لأوبرا عايدة إلى عهد الخديوي إسماعيل قبيل احتفالات افتتاح قناة السويس، حيث راسلت الحكومة المصرية فيردي وطلبت منه إعداد أوبرا لتقديمها أثناء الاحتفال الضخم الذي ستقيمه بمناسبة افتتاح القناة.

ومن الملاحظ أن فيردي لم يكن يكتب إلا للإيطاليين، وكانت أوبرا عايدة هي أول عمل له لجمهور خارج إيطاليا، ولذلك كانت المراسلات بينه وبين الحكومة المصرية فيها شيء من التمنُّع من جهتِه، إلا أنه كتب أوبرا عايدة في النهاية، وكانت قصتها تدور خلال العصر الفرعوني، أثناء سيطرة مصر على الحبشة ومحاولتها التمدُّد جنوبًا والسيطرة على منابع النيل.

وقد أوضح إدوارد سعيد العديد من الأمور المتعلقة بهذه الأوبرا أثناء دراسته لها، ومن أهم هذه الأمور نظرة فيردي المتعصبة للشرق رغم كتابته لهذه الأوبرا، فقد وقع في كثير من مراسلاته وخطاباته قدر كبير من التعصب بل الاحتقار والنظرة الدونية للشرق.

فمن ذلك مثلا، ما وقع في مراسلات فيردي مع أحد أصدقائه الذي كان في رحلة إلى الشرق، حيث طلب منه أن يصف كل ما رأى خلال رحلته، قائلا: "يجب أن تصف لي جميع أحداث رحلتك؛ العجائب التي رأيتها، وجمال وبشاعة بلد كانت له ذات يوم عظمة وحضارة لم أجد نفسي أبدًا قادرا على الإعجاب بهما". وفي تعليقه على أوبرا عايدة ذاتها، قال فيردي: "يبدو أمرًا مستحيلا أن نتحمل اليوم مرأى الأذيال الرثة وربطات العنق البيضاء مثلا مختلطةً بأزياء مصرية وآشورية".

ولذلك أوضح إدوارد سعيد، بعد تحليله للأوبرا وكلماتها ورقصاتها وألحانها، أنها قد امتلأت بشكل عجيب بمشاهد التعصُّب من مصر والرغبة في تزييف الحقائق المتعلِّقَة بحضارتها، حتى طال ذلك اختيار الملابس، بل إن فيردي قام بتغيير بعض الكهان الفراعنة الرجال إلى إناث، ما يدل على نظرته إلى الشرق كرمز للمتعة واللهو، تبعًا لتفسير إدوارد.

نبَّه إدوارد سعيد أيضا إلى التشابه بين الظرف التاريخي بين الفترة الزمنية التي دارت فيها الأوبرا في العصر الفرعوني، وقيام الخديوي إسماعيل بحملات مشابهة إلى الحبشة في محاولة منه أيضا للسيطرة على منابع النيل، وكأن فيردي كان يريد إيصال رسالة ضمنيَّة للقادة الغربيين الذين سيشاهدون هذه الأوبرا، يحذِّرُهم فيها من تقدُّم الخديوي إسماعيل واتساع مملكته.

وعلى الرغم من ذلك كله، لم تَزَلْ أوبرا عايدة تقدَّم في مصر سنويًّا حتى عام 2010م، ويقام من أجل ذلك احتفال مميز، يدعَى إليه نخبة من الأكاديميين والمثقفين والفنانين على مستوى العالم، ولا تزال أوبرا عايدة تُذْكَر بكل خير وفخر في الكتب الدراسية المصرية، ويتفاخر بأنها قُدِّمَت على أرض مصر، وأن أحداثها تدور حول مصر، وأن الفنان العالمي فيردي هو الذي قام بكتابتها، وما شابه ذلك، ولا

يُذْكَر غير ذلك من ملابساتها وتفصيلاتها كي تبدو لنا صورتها لامعة مضيئة، أي أن هذا الماضي الثقافي قد تمت تصفيته وتنقيته حتى يصل إلينا الآن في صورة مختلفة تماما عن حقيقة وظروف إنتاجه.

هجرة الأفكار عبر الزمان والمكان:

تعتبر نظرية هجرة الأفكار عبر الزمان والمكان من أهم إنجازات إدوارد سعيد ومن قدراته التي تميَّزَ بها، إذ تمكَّنَ من خلالها من متابعة الأفكار الإنسانية والنظريات العلمية أثناء تنقُّلِها من دولة إلى أخرى، ومن شعب إلى آخر، ومن ظرف تاريخي إلى آخر، فيضاف إليها ويحذَف منها، في نمط قريب من منهج ميشيل فوكو أثناء دراسته لحفريات المعرفة.

ومن الأمثلة التطبيقية على هذه النظرية، مفهوم الباحث اليساري المجري جورج لوكاتش عن الوعي، حيث رأى لوكاتش أن الاتجاه الرأسمالي قام بتحويل الإنسان إلى مادة، وجمَّد الزمان، وسحب الروح من كل شيء محيط بنا، ما أدَّى إلى عجز الإنسان، وهذا العجز سيصل بالإنسان يومًا ما إلى مرحلة الأزمة، وسيكتشف عندها أن كل المعطيات التي برَّر بها الاتجاه الرأسمالي وضعه الحالي هي معطيات خاطئة، لأنها لا تستطيع حلَّ الأزمة التي وصل الإنسان إليها ولا حتى تفسيرها، وحينها سينضج وعي الإنسان ويثور على هذا الوضع الرأسمالي، كما هو حلم كل اليساريين في العالم.

ولذلك قسَّم لوكاتش الوعي إلى: وعي مقاوِم، ووعي ناضج. فأما المقاوم فهو الذي يظهر عند الأزمة، وأما الناضج فهو الذي يبدأ بالفعل في تغيير المجتمع الذي يكرِّس المادة والمال إلى مجتمع رشيد.

هذه الأفكار التي أطلقها لوكاتش هاجرت من المجر إلى باريس بعد الحرب العالمية الثانية، حيث تبنَّاهَا جولدمان، ولكنه أدخل عليها بعض التغييرات، أهمها قوله بأن المسألة ليست مبنيَّة على الوعي، وإنما على رؤية الإنسان للعالم، فهذه الرؤية هي الشيء الأساسي الذي تتجلَّى فيه كل مظاهر وأفكار الإنسان، ومنشأ هذه الرؤية هو البناء العقلي والثقافي للمجتمع.

وبناءً على ذلك بَنَى جولدمان نظريته الشهيرة والتي تقول بأن النص (كما أي منتج إنساني) له مستويان: مستوى ظاهر، ومستوى باطن؛ وينتج المستوى الباطن للنصوص من علاقات اجتماعية متسِعَة ومعقدَّة، أطلق عليها عملية التوالُد.

وقد قارن إدوارد سعيد بين تطوُّر هاتين النظريتين، وعلاقة هذا التطوُّر بالظروف الثقافية، فوجد أن نظرية لوكاتش في المجر عام 1919م جاءت في أثناء صراع قائم في الاتحاد السوفيتي كانت المجر أحد

أطرافه، فكانت نزعة نظريته ثوريةً واضحة، أما جولدمان فقد بنى نظريته في باريس بعد الحرب العالمية الثانية، أثناء رسالة علمية له مقدَّمَة لجامعة السوربون، ولذلك كان عليه أن ينتزع هذه الثورية من النظرية وأن يلتزم بالتقاليد العلمية الجامعية في بحثه، وأثرت كذلك نزعته الدينية اليهودية على نظريته. أي أن النظرية ذاتها تغيَّرَت نزعتها وأفكارها عندما سافرت من ظرف تاريخي لآخر ومن بيئة اجتماعية لأخرى.